سنغى الإسلامية من خلال "تاريخ الفتاش" في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس

الدكتور/ أبو وردة عبد الوهاب عطية السعدني
مدرس التاريخ والحضارة
في كلية اللغة العربية جامعة الازهر بأسيوط

تمهيـــد :

صـــفحة مشرقة من صفحات التاريخ الاسلامى فى غربى قارة افريقيـــة ، فى المنطقـــة الفسيحة التى تمتد من المحيط الأطلسى فى الغرب ، الى سودان وادى النيل فى الشرق ، وبين المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية فى الشمال ونطاق الغابات الإستوائية فى الجنوب ، فى تلك المنطقـــة الشاسعة التى يخترقها نهران عظيمان ، هما : نهرا السنغال والنيجر ، والتى كانت تعرف باسم بلاد التكرور Tucrör(١)

---

(١) قيل فى سبب تسمية هذه المنطقة ببلاد التكرور ، أن سكان أحد أقاليمها كانوا يعبدون الأصنام قبل انتشار الإسلام فيها ، وتسمى الأصنام فى لغتهم « الدكاكور » ، ثم حرف الاسم الى « تكرور » ، وأطلق – بعد ذلك – على بلاد السودان الغربى بلاد التكرور (انظر كاتب مراكشى مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق دكتور / سعد زغلول عبد الحميد ، ط ٢ بغداد سنة ١٩٨٦م ص ٢١٧) .

وعرفها ياقوت بقوله : التكرور : بلاد تنسب الى قبيل من السودان ، فى أقصى جنوب المغرب ، وأهلها أشبه الناس بالزنوج (انظر : ياقوت – أبو عبد الله يوقوت الحموى الرومى البغدادى ت ٧٢٦ هجرية / ١٢٣٩م) معجم البلدان ، خمسة أجزاء ، بيروت سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م جـ ٢ ص٣٨

وباسم بلاد السودان الغربى(٢) ، قامت دولة سنغى (So ɛha (٣)، التى اعتنقت الاسلام دينا ، واتخذت العربية لغة للتعليم والفكر والثقافة ، وتبوأت مكانا عليا ابان القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، وحملت مشعل الحضارة الاسلامية تبدد به ظلمات الجهل والوثنية فى غربى افريقية ووسطها وجنوبها ، فأرسلت دعائم مدينة اسلامية زاهرة ، تذكرها أسفار التاريخ فى صفحات مشرقة بالفخر والجلال .

وسوف نحاول أن نلقى بعض الضوء على تلك الدولة الاسلامية ،

---

(٢) يطلق اسم السودان على جميع الأقاليم الصحراوية وشبه الصحراوية من افريقية ، التى انتشر فيها الاسلام جنوبى الصحراء الكبرى ومصر ، أى من المحيط الأطلسى فى الغرب ، الى الحدود الغربية لبلاد الحبشة فى الشرق ، وتنقسم الى ثلاثة أقسام :

السودان الغربى — موضع الدراسة:ويشمل أحواض النيجر والسنغال وفولتا ونهر غمبيا .

السودان الأوسط : ويشمل حوض تشاد .

السودان الشرقى : ويشمل الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل .

(انظر : التونسى محمد بن عمر : تشحيذ الأذهان فى ذكر بلاد العرب والسودان ، تحقيق دكتور / خليل عساكر وآخرين ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٥م ، ص ١٣٢ حاشية ١) .

(٣) يكتب هذا الاسم فى بعض المراجع الحديثة : سنغاى ، وسنغهاى، وصنغاى ، وصنغى ، وآثرنا كتابته (سنغى لوروده على هذه الصورة فى المصدر المعاصر لهذه الدولة) : انظر : القاضى محمود كعت : تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، نشر هوداس ودلافوس مطبعة بردين بمدينة انجى الفرنسية سنة ١٩١٣م .

من خلال عرضنا لكتاب (تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس) الذى عاصر مؤلفه تلك الدولة ابان ازدهارها السياسى والحضارى .

مؤلف الكتاب :

ومؤلف كتاب (تاريخ الفتاش) ـ موضع الدراسة ـ القاضى محمود كعب ابن الحاج المتوكل كعت الكرمنى التشبكتى الوعكرى ، لا تستعفنا المصادر التاريخية ـ التى بين أيدينا ـ بمعلومات وفيرة عنه ، فعلى الرغم من اعتماد عبد الرحمن السعدى(٤) ـ من علماء بلاد السودان الغربى فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ـ فى تأليف كتابه (تاريخ السودان) على (تاريخ الفتاش) خاصة فى التاريخ للفترات الزمنية التى لم يعاصرها ، الا أنه لم يشر اليه اشارة شافية ، كما أن المراجع الحديثة لا تذكر عنه سوى أنه كان فقيها مالكيا ، تولى قضاء مدينة « تنبكت »(٥) ، وأنه ولد سنة ٨٦٥هـ / ١٤٦٣م ، وتوفى سنة ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م(٦) !

غير أن فقدان الترجمة لهذا العالم لا يعجز الباحث أو يعييه عن

---

(٤) توفى عبد الرحمن السعدى سنة ١٠٦٦هـ /١٦٥٥م ، ونشر كتابه: تاريخ السودان ، فى مدينة انجى الفرنسية سنة ١٨٩٨م .

(٥) من المدن الرئيسية فى دولة مالى الحالية ، وتكتب الآن « تمبكتو »

(٦) خير الدين الزركلى : الأعلام : قاموس تراجم الأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، ط ٧ بيروت سنة ١٩٨٦م جـ ٧ ص ١٧٩ ، وانظر أيضا : دكتور عبد الرحمن زكى : المراجع العربية فى التاريخ الاسلامى لغربى أفريقية ـ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد السابع والعشرون لسنة ١٩٦٥م . ص ٢٨ .

محاولة الكتابة عنه ، بل هو خسارة مشـــوبة بربح وان جـــاء سلبيا ، اذ يصبح اعتماده مقصورا على ما هنالك من اشارات للمؤلف عن نفسه ورجالات عصره ، فيستشف منها ما يريد ٠

وأول اشارة أوردها محمود كعت عن نفسه ، أن السلطان محمدا ابن أبى بكر تولى حكم سنغى سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م ، (وآنا يومئذ ابن خمس وعشرين سنة)(٧) ، ويستفاد من ذلك أنه ولد فى حدود سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م ـــ وليس سنة ٨٦٥هـ / ١٤٦٣م ـــ وعاش فى مدينـــة « تنبكت » تلك المدينـــة العظيمة التى حملت مشعل الحضارة الاسلامية فى بلاد السودان الغربى ، والتى كانت تعج بمعاهد العلم ومدارسه ، وتخرج فيها أعداد يجلون عن الحصر من أفاضل العلماء ، فى هذه المدينة تتلمذ محمود كعت على علماء عصره ، وكان وفيا لهم ، فذكر منهم : (العالم الورع الزاهد صـــالح جور) ، و (العلامـــة القاضى سيدى أحمد بن أحمد بن آندّ محمد)(٨) ٠

ولا ريب فى أن مؤلف « تاريخ الفتاش » قد ســـار على درب أســـاتذته ، وشيوخه ، حتى غـــدا مرموقا بين النابغين ، ونابغا بين المرموقين ، فأهله نبوغه الى تولى قضـــاء مدينة « تنبكت » ـــ وكان قاضى هذه المدينة بمثابة قاضى قضاة دولة سنغى ـــ ، والى مصادقة محمد بن أبى بكر (٨٩٨ هجرية / ١٤٩٣م ـــ ٩٣٥هـ / ١٥٢٩م) ـــ سلطان سنغى ـــ فقد كان موضع ثقته وأخلص مستشاريه ، ورافقه فى رحلته لأداء فريضة الحج سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م والتقى ـــ أثناء

---

(٧) محمود كعت : تاريخ الفتاش ٠٠ مصدر سبق ذكره ص ٥٨ ٠

(٨) المصدر السابق ص ٣٢ ـــ ٣٤ ٠

وجوده فى القاهرة وهو فى طريق عودته من بلاد الحجاز ــ بالشيخ جلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٩م) وغيره من علماء مصر(٩)

ولقد خلّ القاضى محمود كعت على علاقة وطيدة بحكام سنغى بعد عزل محمد بن أبى بكر سنة ٩٣٥هـ / ١٥٢٩م ، فتزوج بعائشه بنت السلطان داود (٩٥٥هـ / ١٥٤٨م ــ ٩٩١هـ / ١٥٨٢م) ، وهاجر بها من مدينة (كاغ) ــ عاصمة سنغى ــ الى مدينة « تنبكت » ابان الغزو المغربى لدولة سنغى سنة (٩٩٩هـ / ١٥٩١م)(١٠) ، أما وفاته فكانت ــ على الارجح ــ سنة ١٠٠١هـ / ١٥٩٣م .

المنهج التاريخى :

شرع القاضى محمود كعت فى تأليف كتابه سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م وكانت دولة سنغى فى تلك الآونة ، قد وصلت الى قمة ازدهارها السياسى والاقتصادى والحضارى ، بسبب السياسة الحكيمة والجهود المشكورة التى بذلها سلطان سنغى الحاج محمد بن أبى بكر ، فوجد القاضى محمود كعت أن عهد هذا السلطان جدير بالتسجيل والتاريخ ، فشرع فى تأليف كتابه فى التاريخ المذكور ، وقال فى مقدمته :

(.. لما كان ذكر قصص الانبياء والسلاطين وأكابر البلدان ، من عادة الحكماء والعلماء والأعيان ، اتخاذا بسنة القرآن ، وتذكيرا بما غبر من الزمان ... ومن الله علينا بأن أظهر لنا فى زماننا هذا الامام الصالح ، والخليفة العادل ، والسلطان الغالب والمنصور القائم ،

---

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، وص ٦٥ ــ ٦٩ .

(١٠) نفسه ص ١٥٠ .

إسكيا(١١) الحاج محمد بن أبى بكر ... فانفسح له بحمد الله البلدان شرقا وغربا ، وتداعت له الوفـود فردا وجمعا ، فأذعنت له الملوك كرها وطوعا .. أردت أن نجمع من أحواله الحلوان ، مع ذكـر شىء عـال(١٢) الملعون ، مما سهل على اليد واللسان ، وعلى الله سبحانه للتكـلان)(١٣) .

ويتضـح من هذا التقديم ، أن القاضى محمود كعت قصـد — من وراء اقدامه على تأليف كتابه — أن يسـجل أحداث ووقائع تلك الفترة التاريخيـة التى انتقلت فيها دولة سنغى الاسـلامية من حكم « شى عال » الذى وصمت تصرفاته بالظلم والطغيان ، والاستيلاء على أموال الناس بالباطل ، الى حكم الحاج محمد بن أبى بكر الذى رفرفت فى عهده رايـة الأمن والسلام على جنبات دولة سنغى ، وهى فترة جديرة بالتسجيل التاريخى — كما سيظهر من خلال هذه الدراسة .

واذا كان المؤرخ قد أشـار فى مقدمة تاريخه الى أنه سيؤرخ

---

(١١) لقب من ألقاب سلاطين دولة سنغى ، معناه فى لغتهم ، لا يكون الا اياه (انظر : السعدى : تاريخ السودان ، مصدر سبق ذكره ص ٧٢) .

(١٢) حكم سنغى من سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٤م وقتل بسبب ظلمه سـنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م ، ولقب ش معناه : خليفة السلطان أو بدله أو عوضـه وعال معناه : على (انظر : محمود كعت : تاريخ الفتاش/مصدر سبق ذكره ص ٤٣ — ٥٢) أما السعدى فقد ذكر أن اسمه : ش على ووصفه بقوله : كان ظالمـا فاسقا متعديا متسلطا سفاكا للدماء ، قتل من الخلق ما لا يحصـيه الا الله تعالى ، وسـلط على العلماء والصـالحين بالقتل والاهانة والاذلال انظر : تاريخ السودان ، مصدر سبق ذكره ص ٦٨ — ٧١) .

(١٣) محمود كعت : تاريخ الفتاش . مصدر سبق ذكره ص ١٠ ، ١١ .

لعهد الحاج محمد بن أبى بكر دون غيره من العهود ، الا أنه لم يلتزم بذلك ، فقد امتد به العمر ، وتوالت الاحداث والوقائع ، فتابع التاريخ لعهود أبناء هذا السلطان الذين خلفوه فى حكم دولة سنغى ، الى أن وقعت أحداث الغزو المغربى لسنغى سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩١م ، فتوقف عن الكتابة ، الى أن قيض الله لهذا الكتاب أحد حفدة القاضى محمود كعت — ويدعى القاضى اسماعيل — فنسق الكتاب ورتب أحداثه ووقائعه ، واستكمل التاريخ للسنوات التى لم يعاصرها جده ، وهى سنوات الصدام العسكرى المسلح بين المغاربة وحكام سنغى ، والتى انتقلت فى نهايتها دولة سنغى الاسلامية من مسرح التاريخ الى كتبه ، فوصل به التاريخ الى سنة ١٠٠٧هـ / ١٥٩٩م(١٤) .

ومن جهة أخرى ، فلقد أكد المؤرخ — فى ثنايا كتابه — أن معظم الأحداث التى أرخ لها (كانت لما رأيناه وشاهدناه)(١٥) ، وهذا أمر له أهميته عند دراسة (تاريخ الفتاش) ، لانه يعد أقرب الى الوثيقة التاريخية التى لا يخالطها زيف أو ريب ، كما تضمن الكتاب مقارنات تاريخية عديدة ، وطرفا من قصص بعض الأنبياء — خاصة أنبياء بنى اسرائيل — الأمر الذى يدل على أن مؤلفه كان موسوعى الثقافة ، شأنه فى ذلك شأن علماء المسلمين فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) وما سبقه من قرون .

ويمكن القول — الى جانب ما تقدم ذكره — ان « تاريخ الفتاش » كتاب حضارى أيضا ، لأنه يلقى الضوء على الاوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية فى منطقة بلاد السودان الغربى بصفة عامة .

---

(١٤) المصدر السابق ص ١٦ ، ١٨٤ .

(١٥) المصدر نفسه ص ١٦ .

كما يستطيع الباحث التعرف — من خلال دراسة أحداثه ووقائعه — على القبائل العديدة ، والمتنوعة التي عاشت في تلك المناطق إبان القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، ومعرفة أصولها الأولى ، وعاداتها وتقاليدها ، وأحوالها قبل الاسلام ، وأثناء حكم الدول الاسلامية التي قامت فيها ، والتي استطاعت أن تجمع شتات هذه القبائل في وحدة دينية وثقافية فريدة .

دولة سنغى في تاريخ الفتاش :

حين نقلب صفحات كتاب « تاريخ الفتاش » نجد أن قبيلة سنغى كانت احدى القبائل التي دانت بالطاعة لسلاطين دولة مالى (أو مل)(١٦) التي حكمت في بلاد التكرور أو السودان الغربى من سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م ، والتي اشتهر سلاطينها بأنهم ملوك الذهب — لوفرته في بلادهم — ، وحين دب الوهن في أوصال تلك الدولة ، في النصف الأول من القرن التاسع الهجرى ، (الخامس عشر الميلادى)، تمكنت قبيلة الطوارق من السيطرة على مقاليد الأمور فيها سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م وسادت حالة من الفوضى استمرت أربعين سنة تقريبا ،

---

(١٦) تعد مملكة مالى ثانى الممالك الافريقية السودانية التي قامت في غربى افريقية بعد سقوط دولة غانا سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م ، انظر دكتور / عبده بدوى : مع حركة الاسلام في افريقية الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠م ص ١٤٩ — ١٥٤ ، دكتور أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، جزءان ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٢ جـ ١ ص ١٠٩ ، دكتور : خليل السامرائى : الأوضاع السياسية للعالم الاسلامى من خلال رحلة ابن بطوطة ، بغداد سنة ١٩٨٦م ص ٢٤ .

استطاعت ــ بعدها ــ قبيلة سنغى القضاء على حكم الطوارق ، وتولى حكم تلك المناطق الشاسعة سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م(١٧) .

وبسيطرة قبيلة سنغى ــ التى كانت قد أعتنقت الاسلام أثناء حكم سلاطين دولة مالى ــ على بلاد التكرور أو السودان الغربى ، قامت دولة سنغى التى شهدت هذه المنطقة ــ فى عصرها ــ نهضة اسلامية زاهرة ، خاصة حين تمكن الحاج محمد بن أبى بكر ــ وكان قائدا عسكريا فى جيش سنغى ــ من هزيمة « شى بار » ــ حاكم سنغى ــ فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م(١٨) ــ والذى وصم حكمه وحكم أبيه « شى عال » ــ من قبله بقبح السيرة وسوء السريرة .

وحين تولى الحاج محمد بن أبى بكر حكم دولة سنغى ــ فى التاريخ المذكور ــ تلقب بلقب « اسكيا » ، واتخذ من مدينة «كاغ»(١٩) ــ ذات الموقع الاستراتيجى على الضفة اليسرى لنهر النيجر ــ

---

(١٧) محمود كعت : تاريخ الفتاش . مصدا سبق ذكره ص ٢٧ ــ ٣٨.

(١٨) المصدر السابق ص ٥٢ ــ ٥٥ ، وانظر أيضا : السعدى : تاريخ السودان . مصدر سبق ذكره ص ٧٠ ــ ٧٢ .

(١٩) أطلق على العاصمة (كاغ) اسم (كوكو) ــ أيضا ــ (تاريخ الفتاش ص ٤٥) ووصفها مؤلف كتاب الاستبصار بأنها : مدينة عظيمة ، فيها خلق كثيرون من السودان لا يحصى لهم عدد ، ويقال انما سميت بهذا الاسم (كوكو) لأن الذى يفهم من نغمة طبولهم كوكو ، انظر : كاتب مراكشى مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار . مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٥ .

عاصمة له ، واتبع سياسة مغايرة لسياسة أسلافه من حكام سنغى ، يمكن ايجاز أهم ملامحها الرئيسية فيما يلى :

أولا : سار على السياسة الاسلامية التى سار عليها سلاطين دولة مالى ابان قوتهم ومجدهم ، بل فاقهم فى هذا المضمار ، فكان حماسه للاسلام منقطع النظير ، ويرى القاضى محمود كعت أن تلك الحماسة ليست أمرا غريبا على أهل سنغى لان أصلهم عربى من الجزيرة العربية ، من أسباط (جابر بن عبد الله الأنصارى) المتوفى سنة ٧٨هـ / ٦٩٧م ، أى يعود أصلهم الى المدينة المنورة ، والى هذا الصحابى الجليل الذى بايع الرسول — ﷺ — فى العقبة الثانية ، وشهد المشاهد كلها ، وكان مشهودا له بالعلم والفضل(٢٠) .

ولذا نجد القاضى محمود كعت ، يقول عن اسكيا محمد : (.. فلما ثبتت له السلطنة ، واستقامت له المملكة .. جعل يسأل العلماء عن سنة رسول الله — ﷺ — ويمشى على أقوالهم)(٢١) ، فأحاط نفسه بالعلماء والصالحين ، واتخذهم مستشارين له وأعوانا ، فلا (يجلس معه على

---

(٢٠) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص ٥٨ وانظر فى ترجمته عبد الله بن جابر الأنصارى : ابن العماد الحنبلى:شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت (د . ت) جـ ١ ص ٨٤ ، ويرجع أحد الأساتذة أصل سنغى الى قبيلة صنهاجة العربية التى هاجرت فى وقت مبكر من الجزيرة العربية الى افريقية (انظر : دكتور / عبده بدوى : مع حركة الاسلام .. مرجع سبق ذكره ص ١٦٢) بينما يرى أستاذ آخر أن أفراد قبيلة سنغى من الجنس النوبى ، وأنهم رحلوا من مصر العليا أمام الفتح العربى انظر : دكتور : عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم اليوم (افريقية الاسلامية) النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٥٨م ص ٥ .

سريره الا الشرفاء .. وجعل القضاة اذا جاءوا يأمر لهم ببسط حصر الصلاة ... ولا يقوم لأحد الا للعلماء والحجاج اذا قدموا من مكة .. ولا يأكل معه الا العلماء والشرفاء وأولادهم)(٢٢) .

ونعمت سنغى — فى عهد اسكيا محمد — بالأمن والسلام ، فعم الرخاء وساد العدل شتى الأرجاء ، واستحق السلطان أن ينعت بالامام (العادل أبى اليتامى والأرامل والمساكين والضعفاء وملجأ العلماء)(٢٣) .

وكان أمرا طبيعيا أن يعمل اسكيا محمد وخلفاؤه من بعده على احياء الشعائر الاسلامية فكانوا يحافظون على الصلاة فى أوقاتها فى المساجد الجامعة(٢٤) ويحرصون على أن تعم صدقاتهم سكان سنغى

---

(٢٢) محمود كعت : تاريخ الفتاش : مصدر سبق ذكره ص ١١ ، ١٢ .

(٢٣) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٢٤) يروى القاضى محمود كعت عن اسكيا اسحق الأول(٩٤٦هـ/١٥٣٩م) — ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م) أنه كان صالحا مرضيا مباركا كثير الصدقات ملازما للجمع والجماعات ، أتى الى المسجد لصلاة الفجر فى ليلة ممطرة مظلمة وجلس فى جانب المسجد وحيدا ، حتى أتى المؤذن ونادى بالأذان (وجلس ينتظر الجماعة والامام ، ثم لم يأت أحد حتى جاء الامام ، فقال له المؤذن : أيها الامام .. لعلك تنتظر مجىء اسكى اسحق ، فانه لا يخرج من مرقده فى هذا المطر والظلمة والطين ، وأين هو الساعة ؟ على سريره المفروش بأنواع الحرير ، فأجابه اسكى اسحق فى جانب المسجد ، قائلا : ان كان اسكى اسحق هو المنتظر فها هو قد سبقكما ، فقوما نصلى ، فقاما متعجبين من خروجه وحده للصلاة) انظر : محمود كعت : تاريخ الفتاش مصدر سبق ذكره ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

من أقصاها الى أقصاها طوال شهر رمضان المعظم(٢٥) .

وأولى هؤلاء السلاطين الحج اهتماما كبيرا ، فدعموا قافلة الحج — التي كانت تخرج في شهر صفر من كل عام — بالأموال الطائلة ، والحراسات اللازمة ، والخدمات الطبية وغيرها ، وكانت أغلى أمنية لدى مسلمي سنغي أن ينتظم الواحد منهم في قافلة الحج لأداء الركن الخامس من أركان الاسلام، وليحظى بشرب الطواف حول الكعبة المعظمة، وبزيارة قبر المصطفى — ﷺ — ، وكان السلطان يخرج بنفسه ومعه كبار رجال دولته لاستقبال الحجاج عند عودتهم من رحلة الحج تكريما لهم ، يقول المؤرخ محمود كعت : (ويخرج اسكى لملاقاتهم ويأتيهم بالكسوات والالباس ، ويسألهم الدعاء ، ويتبرك بهم ، ومعه علماء سنغي ، ويقبل السلطان أيديهم جميعا تعظيما واجلالا لهم)(٢٦) ، حتى وان كان أحد هؤلاء الحجاج من عبيد السلطان — وسوف نتناول حج اسكيا محمد في هذه الدراسة .

ثانيا : تبنى اسكيا محمد سياسة الجهاد في سبيل الله تأكيدا للروح الاسلامية التي غلبت عليه ، فبعد أن استكملت الدولة — في عهده — استعدادها العسكرى ، استشار أهل العلم والورع ، فلما أفتوه بمشروعية الجهاد في سبيل الله ، اتجه الى مملكة « موسى » الزنجية في الجنوب ، وطلب الى رؤسائها الدخول في الاسلام أو دفع الجزية، فلما أبوا ، حاربهم في ديارهم ، ثم انساح فوق السهول لا يعوقه عائق فانبسط نفوذه غربا الى بلاد « الماندنجو » Mandingue والفولانى Fulani ، وشمالا حتى مواطن الطوارق Touareq فتجاوز سعيه

---

(٢٥) المصدر السابق ص ١٤٥ .

(٢٦) المصدر نفسه ص ١١١ ، ١١٢ .

سنغى فى عهده — وعهود أبنائه من بعده — الآفاق التى وصل اليها نفوذ سلاطين دولة مالى ، وتسرب نفوذهم الى شمالى نيجيريا ، فهوجمت امارات الحوصة (الهوسا) ، وكتسينا ، وغوبير ، وغيرها(٢٦) ، وكان هذا الخضوع بداية لظهور الثقافة الاسلامية فى تلك الجهات ، بعد أن دخل سكانها فى الدين الاسلامى اعجابا بسياسة اسكيا محمد التى اتسمت بالسماحة والرحمة والعدل والانصاف(٢٧) .

ثالثا : اتبع اسكيا محمد سياسة خاصة عادت بالنفع على رعاياه تتلخص فى أنه اذا أتم الله على يديه فتح منطقة من مناطق القبائل المجاورة يجمع سكانها من أرباب الحرف والمهن ، ليستفيد منهم فى عمليات الانشاء والتعمير التى شهدتها سنغى ابان حكمه ، فقد تمكن — على سبيل المثال — من بناء مدينة جديدة اسمها « قندرمة » — فى قلب الصحراء بين العاصمة كاغ ومدينة — تنبكت — على أنقاض مدينة قديمة كانت لبنى اسرائيل ، اذ عثروا — أثناء الحفر — على ٣٣٣ بئرا للمياة من آبار بنى اسرائيل صالحة للاستعمال ، فخرجت مدينة « تندرمة » على أحسن ما يكون البناء والتشييد ، هذا الى جانب عظم مساحتها فأقيمت فيها الأسواق التجارية ، وشيدت فيها المساجد الفخمة للصلاة ، والكتاتيب والمدارس ، لتحفيظ القرآن الكريم ومدارسة العلم ، وجعلت مقرا لنائب السلطان(٢٨) .

رابعا : نعمت امبراطورية سنغى فى عهد اسكيا محمد وعهود

(*) المصدر نفسه ص ٦١ — ٧٥ .

(٢٧) دكتور / حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ط ٣ دار الفكر العربى ، القاهرة سنة ١٩٨٦ ، ص ٢٢٧ .

(٢٨) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص ٦١—٦٥

خفائه من بعده بالرواج الاقتصادى ، فكانت من أغنى الدول الاسلامية في القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، ان لم تكن أغناها على الاطلاق ، نظرا لسيطرتها على مساحة شاسعة تفوق مساحة دول غربى أوربا مجتمعه ، واحتواء أرضها على ثروات معدنية هائلة ، فقد كانت المصدر الوحيد للذهب فضلا عن وجود الملح بوفرة فى منطقة « تغازى » فى الشمال(٢٩) ، والذى كان السودانيون يتصارفون به كما يتصارفون بالذهب والفضة ، بالاضافة الى الحديد والنحاس(٣٠) ، وكانت أراضيها خصبة يجرى فيها نهرا السنغال والنيجر وروافدهما الكثيرة ، وتهطل عليها الامطار الموسمية الغزيرة ، فيزرع سكانها القطن والقمح والشعير والأرز والاذرة وغيرها من المحاصيل ، كما كانوا يربون قطعان الماشية التى وفرت اللحوم والألبان لجميع الرعايا(٣١) .

وقامت فيها صناعات محلية لصناعة الأقمشة القطنية ، والرماح والحرشان « السهام »(٣٢) ، وكانت أساطيل التجار وقوافلهم — من مصر وشمالى افريقية — تقصد أسواق سنغى ومراكز التجارة فيها ، تحمل منتجات تلك البلاد وغيرها الى بلاد السودان الغربى ، لتعود بما فى سنغى من أصناف السلع التجارية ، وكان اسكيا سنغى على قدر

---

(٢٩) محمود كعت : المصدر السابق ص ٤١ .

(٣٠) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطنجى ت سنة ٧٧٩هـ) : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، كتاب التحرير ، القاهرة سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦ ، ص ٤٤٥ ، ٤٥٤ .

(٣١) كاتب مراكشى مجهول : كتاب الاستبصار .. مصدر سبق ذكره ، ص ٢١٧ — ٢٢١ .

(٣٢) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص ١٢٢ .

كبير من العلم بشئون المـال والاقتصاد ، فلقد نظم الأسواق وعين لها المشرفين والادلاء ، وأمن الطـرق التجـارية ، وفرض الجمـارك (المكوس) على البضائع ، وحافظ على الأسعار بحكمة تفوق الوصف، وضارعت « كاغ » ــ عاصمة سنغى ــ أكبر العواصم حينذاك فى روعة البنيان ، وكثرة السكان ، فقد بلغت قصـورها ودورها سـبعة آلاف وستمائة وعشرين قصرا وبيتا ، سوى «بيوت مبنيات بالحشيش»(٣٣)

ووصـلت مدينتا تنبكت وجنى قمة الاتساع والازدهار ، وتمتع سكانها بالثراء والأمن ، بل كانت أرض بلاد السـودان الغربى عموما من أعظم أرض الله نعمة ورفاهية وأمنا وعافية فى كل جهة ومكان(٣٤)

حج اسكيا محمد :

بعد أن أمضى اسكيا محمد أربع سنوات فى توطيد أركان دولته وارساء دعائم الأمن والسلام فيها ، تهيأ للسفر الطويل المحبب الى نفوس أهل بلاد السودان الغربى ، وذلك لأداء فريضـة الحج سـنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م

وقد كان الحج من الأركان التى حرص سـكان تلك المناطق ــ طوال تاريخهم على أدائه على الرغم من بعد الشقة بينهم وبين بلاد الحجاز ، اذ كانت رحلة الحج تستغرق أكثر من ثلاثة وعشرين شـهرا ذهابا وايابا(٣٥) ، الا أنهم كانوا يستعذبون العناء فى سـبيل زيارة الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة .

---

(٣٣) المصدر السابق ص ١٤٦ .

(٣٤) المصدر نفسه ص ١٨١ .

(٣٥) اعتاد سكان بلاد السودان الغربى الخروج لاداء فريضة الحج

وكانوا يسلكون — فى طريقهم الى بلاد الحجاز — الدرب الصحراوى المعروف بطريق « غات » ، الذى يبدأ من مدينة غات نفسها وينتهى عند الأهرام بالجيزة(٣٦) ، فاذا وصلوا الى مصر ، فانهم اعتادوا أن يقضوا فيها وقتا حتى تتهيأ قافلة الحج المصرى فى الذهاب الى مكة ، ولا شك فى أن تلك المدة التى كانوا يقضونها فى مصر ، كانت فرصة طيبة يتصلون فيها بالمصريين ، ويتصل المصريون بهم ، ويتعرف كل طرف على الآخر .

وقد حدثتنا كتب التاريخ أن أول من مر بمصر — فى طريقه الى بلاد الحجاز — سلطان مالى منسى(٣٧) ولى (٦٥٣هـ/١٢٥٥م — ٦٦٩هـ/١٢٧٠م) ، الذى حج أيام الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨هـ/١٢٦٠م — ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) ، كما تخبرنا المصادر التاريخية — أيضا — أن وفدا آخر من حجاج التكرور ، قدم بعد ذلك الى مصر سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م ، وكان يتألف من عشرة آلاف تكرورى على رأسهم منسى موسى (٧٠٧هـ/١٣٠٧م — ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) ، الذى أحاط نفسه بمظاهر الترف ، وأخذ ينفق فى مصر عن سعة أسترعت أنظار المعاصرين ، وقدم هدايا جليلة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون — فى سلطنته الثالثة (٧٠٩هـ/١٣١٠م — ٧٤١هـ/١٣٤١م) — من بينها

=

فى شهر صفر ولا يعودون الى بلادهم الا فى شهر ذى الحجة من العام التالى انظر : محمود كعت : تاريخ الفتاش — مصدر سبق ذكره ص ٦٥ ، وانظر أيضا : السعدى تاريخ السودان ، مصدر سبق ذكره ص ٧٢ .

(٣٦) ابن بطوطة : تحفة النظار .. مصدر سبق ذكره ص ٤٥٥ .

(٣٧) منسى : مصطلح سودانى معناه السلطان .. ابن بطوطة : المصدر السابق ص ٤٤٥ .

الحمل بعير من الذهب الخام،وقد أكرم السلطان الناصر وفادته ، وبعثه اليه والى أفراد حاشيته بالخلع والسيوف وغيرها ، كما أمده بالخيول والجمال والمؤونة ، ليتمكن من مواصلة سفره الى بلاد الحجاز رفقة قافلة الحج المصرى(٣٨) .

ويبدو أن الحج كان من بين أغراضه — والى جانب أداء الركن الخامس من أركان الاسلام — اكساب شخصية السلطان من الهيبة والاحترام ما يمكن لملكه فى بلاده ، ويبعث رعيته على طاعته(٣٩) ، هذا الى جانب المنافع الثقافية والحضارية ، التى يستفيدها بلاد السودان الغربى من جراء الاحتكاك الثقافى ، والاتصال بمشاهير العلماء ، خاصة فى مصر وبلاد الحجاز ، وأيضا الفوائد الاقتصادية التى تعود عليهم نتيجة التبادل التجارى ، والمعاهدات التجارية التى كانوا يعقدونها مع سكان البلاد التى يمرون بها .

وسيرا على تلك السنة الطيبة ، تجهز اسكيا محمد بن أبى بكر فى السنة الرابعة من حكمه للسفر الطويل الذى تهفو اليه قلوب المسلمين فى بلاده ، وأذن فى الناس بالحج ، فتوافدت عليه جموع غفيرة من رعاياه ، وأعد قافلة كبيرة خرج على رأسها ، ومعه أمراء الأقاليم فى

---

(٣٨) القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد ، ت ٨٢١هـ): صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، أربعةعشرجزءا ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧م جـ ٥ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، وانظر محمود كعت : تاريخ الفتاش — مصدرسبق ذكره ، ص ٣٢ — ٣٧ ، وانظر : دكتور / حسين أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٣٩) دكتور / حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية .. مرجع سبق ذكره ص ٢٢٤ .

دولته وسبعة من كبار فقهاء سنغى ، هم : ألفا صالح جور ، ومور محمد هوكار ، وألفا محمد تل ، وكاغ زكريا ، ومور محمد تنك ، والقاضى محمود يندبغ والقاضى محمود كعت ـ مؤلف تاريخ الفتاش موضع الدراسة ـ ، كما كان معه من العبيد ثمانمائة ، هذا الى جانب ما تحتاجه القافلة من مؤن وزاد ، وذهب وغير ذلك(٤٠) .

ويحدثنا القاضى محمود كعت عن كرامات علماء سنغى ـ أثناء رحلة الحج ـ ، فيذكر أنهم بعد مغادرتهم مدينة الاسكندرية بثلاثة أيام هبت على القافلة عاصفة شديدة الحرارة ، وكان ماء قربهم قد نفد ، وأشرفت القافلة ودوابها على الهلاك ، (فأمر أمير المؤمنين اسكى محمد غلاما ، بأن يذهب الى العالم ألفا صالح جور ، يطلب منه أن يدعو الله بحرمة النبى ـ ﷺ ـ أن يسقينا ... فقام ساعتئذ وتوجه الى القبلة ، وقال : اللهم انا عطشنا ، وأنت أعلم بحالنا منا ، وأنت عالم الظاهر والباطن ، فما تم كلامه ، حتى سمعنا رعدا ، فمطرنا مطرا ساعتئذ ، فشربنا وسقينا دوابنا ، واغتسلنا ، وغسلنا ثيابنا ، واقمنا هنا يومين)(٤١) .

وأظهر اسكيا محمد تواضعا زائدا ، اذ أحاط أفراد القافلة أجمعين بعطفه ورعايته ، فلم يدع محتاجا الا أعانه ، ولا مريضا الا أمر الأطباء بمعالجته ، وحرص على أن يوزع الطعام بنفسه على الركب فيذكر القاضى محمود كعت ، أن السلطان وزع تمرا على مرافقيه ـ

---

(٤٠) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص ١٦،٦٥

(٤١) المصدر السابق ص ٦٧ ، ٦٨ . ورغم المبالغة الواضحة فى هذه الرواية فانها تدل على تكريم العلماء وتقديرهم .

كعادته ــ ونسى اعطاء الفقيه « ألفا محمد تل » ، (فحزن لذلك ألفا محمد تل فى نفسه ولم يبين لأحد ، فحمل بعض أهل الرفقة منعه عمدا والبعض يقول نسيانا ، وبكى أهل منزل ألفا محمد تل .. فجاء الأمير اسكى محمد ، فأكب يقبل يديه ورجليه ، ويعتذر اليه بالنسيان)(٤٢).

أما فى بلاد الحجـــاز ، فلقد فاق جود اســـكيا محمد وكرمه كل وصف ، اذ عمت صـــدقاته فقـــراء الحرمين الشريفين ، فأنفق عليهم مائة ألف دينار ذهبا ، واشترى منازل وحدائق وأوقفها على العلمـــاء والفقراء والمساكين ، وجلس كثيرا مع شريف مكة ــ الى جوار الكعبة المشرفة ــ ، وقلده شريف مكة الخلافة ، ولقبه بلقب امام (وجعل على رأسه قلنسوة خضراء ، وعمامة بيضاء ، وأعطاه سيفا ، وأشـــهد الحاضرين : أنه خليفة بأرض التكرور ، وأن كل من خالفـــه ــ فى تلك الأرض ــ فقد خالف الله تعالى ورسوله)(٤٣) .

وبناء على هذا التقليد ، يرى القـــاضى محمود كعت ، أن خليفة المسلمين الأعظم ــ فى القرن الهجرى (السادس عشر الميلادى) ــ ســـلطان الدولة العثمانية ، وخليفته فى أرض الحجـــاز شريف مكة ، وخليفـــة شريف مكة ــ فى بلاد التكرور ــ اســـكيا محمد وخلفاؤه من بعده(٤٤) .

ودأب سلاطين تلك البلاد على أن يصطحبوا معهم ــ عند عودتهم الى بلادهم بعد أداء مناســـك الحج ــ عددا من الأشراف للاقامة فى بلادهم ، ، توطيدا للروابط الدينيـــة التى تربطهم ببلاد الحجـــاز ،

---

(٤٣) المصدر نفسه ص ١٢ .

(٤٤) ذكر القاضى محمود كعب هذا الرأى عند سرده لأحداث ســـنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م انظر المصدر السابق ص ٨٦ .

وليخضعوا على أنظمتهم المظهر الدينى ، فيزدادوا — فى نظر رعاياهم — اجلالا واكبارا ، فطلب اسكيا محمد من شريف مكة ، أن يأذن لواحد من الأشراف بالتوجه الى دولة سنغى (ليتبركوا به) ، فأرسل اليه سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م شريفا يصل نسبه الى الحسن بن على — رضى الله عنهما — يدعى أحمد بن عبد الرحمن بن ادريس ، الذى وصل الى سنغى صبيحة عيد الأضحى المبارك ، فكان وصوله حدثا رائعا ، حيث استقبله السلطان وكبار رجال دولته من الأمراء والعلماء والأعيان ، وجماهير المسلمين استقبالا حافلا ، وأعطاه السلطان مائة ألف دينار من الذهب ، وخمسمائة خدام ، ومائة من الابل ضيافة له ولأتباعه وأقام الشريف الحسن فى مدينة تنبكت ، وتزوج فيها بامرأة تسمى زينب أنجب منها : مزاور ، ومحمد ، وسليمان ، ورقية ، وزينب ، ولما لم يطق السلطان صبرا على مفارقته ، قدم اليه بنفسه ، ورجاه أن يقيم معه فى العاصمة (كاغ) ، وأوقف عليه قرى كثيرة ، وكان دائم الجلوس معه للمؤانسة والمفاكهة وليزداد بركة(٤٥) .

ويقارن صاحب تاريخ الفتاش بين الشريف الذى شرفت به بلاد التكرور — فى عهد اسكيا محمد — ، وبين من حضر من مكة رفقة منسى موسى سلطان دولة مالى ، فيقول : ان الأخير (أمر مناديا .. ينادى : من أراد ألف مثقال من الذهب ، فليتبعنى الى أرضى .. فجمع عليه أربعة رجال من قريش قيل : انهم كانوا من موالى قريش ، وليسوا من نفس قريش)(٤٦) ، وهذا يدل على أن اسكيا محمدا نال شرفا عظيما لم ينله منسى موسى على الرغم من محاولته اغراء الأشراف باغداق الأموال عليهم ، لأن الأربعة الذين رافقوه — الى بلاده —

---

(٤٥) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص ٢٣ ، ٢٤

(٤٦) المصدر السابق ص ٣٧ .

لم يكونوا من السلالة النبوية المطهرة ، وليسوا من قريش ، وانما من مواليهم .

النظم الادارية :

أرسى اسكيا محمد نظما ادارية لحكم سنغى ، تجمع بين التراث السودانى والنظم الادارية التى كانت موجودة فى دول المشرق الاسلامى ، خاصة مصر ، والتى اطلع عليها أثناء رحلته الى زيارة بيت الله الحرام فى مكة — سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م .

وتتلخص هذه النظم الادارية ، فيما يأتى :

السلطان :

وهو الحاكم الأعلى للبلاد ، وعلى الرغم من أن ولايته كانت تأتى — فى معظم الأحوال — عن طريق الغلبة والقهر ، الا أنه لابد أن تصدر فتوى شرعية من علماء مدينة « تنبكت » بعزل السلطان السابق، وتولية السلطان الجديد فكانت ، موافقة علماء تنبكت ضرورية للسلطان الجديد ، حتى تكون ولايته شرعية فى نظر رعايا دولة سنغى ، ويدعى له من فوق المنابر أيام الجمع والعيدين ، ويضرب له طبل السلطنة — وهى عادة قديمة متوارثة فى بلاد السودان الغربى — (٤٧) ويلقب بلقب « اسكيا »(٤٨) ، الى جانب ألقاب : امام ، وخليفة ، وأمير

---

(٤٧) كاتب مراكشى مجهول : كتاب الاستبصار .. مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٠ .

(٤٨) رفض محمد بن أبى بكر لقب « شى » لما يمثله فى أذهان رعايا سنغى من الظلم والقهر وسفك الدماء ، وآثر عليه لقب « اسكى » ، الذى تلقب به بعض رؤساء القبائل — قديما — ، ومعناه : لا يكون الا اياه انظر: محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ، ص ٤٣ ، ٤٩) .

المؤمنين ، ومن علامات الولاء والطاعة للسلطان ، أن يرفع القادة التراب على رؤوسهم تحيـــة له(٤٩) ، وأن يركبوا ويسـيروا خلفه ، وكان للسلطان حجاب وبوابون على قصره ، وعبيد من الخصيان يقومون على خدمتـــه ، ويوقظونه من نومـــه ويحضرون له المـاء للوضـــوء ، والســـواك ليستاك به(٥٠) الى غير ذلك مما تتطلبه حياة الســـلطان اليوميـــة .

المشـــور :

مجلس يشبه الديوان ، يجتمع فيه السلطان بكبار رجال دولته ، لدراسة أوضاع الدولة وأحوال الرعية ، وكان موجودا في عصر دولة مالى تحدث عنه ابن بطوطة أثناء وصف رحلته الى تلك المنـــاطق(٥١) وكانت تعقد جلسات المشور ـــ فى المعتاد ـــ مرة واحدة فى الاسبوع برئاسة السلطان ، وضمت عضـــويته ، نائب الســـلطان ، والأمراء ، والترجمان ، والولاة ، والقضاة والخطيب ، والفقهاء ، كما كان كل اقليم مشور يدير شئونه ويرأسه حاكم الاقليم(٥٢) .

كرمن فارى :

وتسمى ـــ أيضا ـــ « الكنفارويـة » ، أو « كنفار » ، أو « أمير

---

(٤٩) رفع التراب على الرأس تحية للســـلطان ، عادة قديمـــة في بلاد السودان الغربى ، انظر كاتب مراكشى مجهول : كتاب الاستبصار .. مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٠ ، ابن بطوطة : تحفة النظار .. مصدر سبق ذكره ص ٤٥٠ .

(٥٠) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص ١٠١، ١٣٢.

(٥١) ابن بطوطة : تحفة النظار .. مصدر سبق ذكره ، ص ٤٤٥، ٤٤٦

(٥٢) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ، ص ٩٨، ١٥٠.

الأمراء » ، وتطلق على نائب إسكيا (السلطان) ، ومقر حكمه مدينة « تندرمة » التى أنشئت حديثا فى عهد اسكيا محمد ، وجرت عادة حكام سنغى أن يتولى هذه النيابة أحد أبنائهم ، أو أحد أخوتهم ، وهو ينوب عن السلطان فى حكم الدولة ، اذا خرج الأخير للغزو أو الحج ، كما يتولى بعض المهام الادارية فى الأوقات العادية(٥٣) ، وتجمع هذه الوظيفة بين وظيفة « نائب الحضرة » ، ووظيفة « نائب الغيبة » فى النظام الادارى المملوكى فى مصر(٥٤) .

بلمـــع :

وظيفـــة قديمـــة تطلق على القائد العام للجيش السنغى ، ومن القـــادة ـــ أيضـــا ـــ « تندفرم » ، و « كتل فرم » ، وهما من أرباب الطبـــل(٥٥) .

بنـــك فـــرم :

أى أمير ، وتلك الرئاسة لها مقام كبير فى دولة سنغى ، وصاحبها من أرباب الطبل ، ومسئول عن النواحى المـــالية والاقتصادية(٥٦) .

---

(٥٣) المصدر السابق ص ٦٥ .

(٥٤) نائب الحضرة : أمير كبير على رأس رجال البلاط ، يتركه السلطان فى قصره ، ليدير له شئون الدولة فى وجوده نيابة عنه ، أما « نائب الغيبة » فيقوم بعمل السلطان فى حالة غيابه عن البلاد ، انظر دكتور : عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورســومهم فى مصر ، الطبعـــة الثانية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٨٣م ، ج ٢ ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٥٥) محمود كعت : تاريخ الفتاش . مصدر سبق ذكره ص ٤٩ ، ٦٢ والمقصود بهذه الطائفة كبار القادة الذين تدق أمام أبوابهم أو مواكبهم الطبـــول .

(٥٦) المصدر السابق ص ٦٢ .

وزيـــر القـــلم :

كاتب اسكيا ورئيس ديوانه ، والذى يدبج رسائله الى من يشاء من الملوك والسلاطين ، ويقرأ عليه ما يرد من الرسائل ، وهذه الوظيفة خاصة بالفقهاء وأرباب العلم(٥٧) .

الترجمـــان :

بدرجة وزير — أيضا — ، وهو الذى ينادى فى النـــاس بكلام السلطان ، ويرفع اليه مطالب الرعية(٥٨) .

منـــــذ :

أى حاكم ، وهو نائب اســكيا على ولايـــة أو اقليم من أقاليم السلطنة ، كما وجد فى الأقاليم حكام تختارهم الرعية ، يطلق عليهم — بلغتهم — « كى » ، فيقال : ملكى ، وجنكى ، أى سلطان مالى ، وسلطان جن(٥٩) ، ولعـــل « منذ » حاكم معين من قبـــل السلطان ، و « كى » حاكم وطنى مختار من قبل الرعية .

باغـــن فـــارى :

قائد فرقة من الجيش لحفظ الأمن فى الأقاليم .

قـــــرن :

حاكم مدينة صغيرة أو قرية كبيرة(٦٠) .

---

(٥٧) المصدر السابق ص ١٨ .

(٥٨) المصدر السابق ص ٨٨ .

(٥٩) المصدر السابق ص ٨٩ .

(٦٠) المصدر السابق ص ٧٩ .

النظـــام القضـــائى :

أقام اسكيا محمد نظاما قضائيا فى دولة سنغى ، يشبه ـ الى حـــد كبير ـ النظـــام القضـــائى المتبع فى مصر ابان عصر سلاطين المماليك ، من ناحية نظمه الادارية ، وان اختلف عنـــه فى أن المذهب السائد فى بلاد التكرور كان المذهب المـــالكى ، دون غيره من المذاهب الفقهيـــة المعروفـــة .

يقول القاضى محمود كعت عن اسكيا محمد : (جدد الدين ، وأقام القضاة ... ونصب فى تنبكت قاضيا ، وفى بادة جنى قاضيا ، وفى كل بلد يستحق القضاء من بلاده قاضيا)(٦١) . كان لكل قاض نواب وشهود ، وعدول ، وخدم ، واعتبر قاضى مدينـــة « تنبكت » بمثابة قاضى القضاة وفاقت مكانته كل وصف لدى حكام وشعب سنغى معا ، يقول صاحب تاريخ الفتاش : (ومدينة تنبكت ـــ يومئذ ـــ ليس فيهـــا حكم الا حكم متولى الشرع ، ولا سلطان فيها ، والقاضى هو السلطان ، وبيده الحل والربط وحده)(٦٢) .

وجرت العادة عند تعيين أحد القضاة ، أن يصـــدر قرار بتعيينه من السلطان نفسه ، وأن يرسل اليه كتابا فيه قرار تعيينه ، وقميصا من ملابسه وعمامة من عمائمه ، لارتدائهما تكريما له(٦٣) .

وعلى الرغم مما كان يحيط منصـــب القاضى من مظاهر الجاه والثراء ، فان علماء سنغى كانوا يتأبون ويتمنعون من ولاية القضاء ، ويفضلون عليها وظائف التدريس ، شأنهم فى ذلك شأن معظم كبار

---

(٦١) المصدر نفسه ص ٥٩ .

(٦٢) نفســـه ص ١٨٩ .

(٦٣) محمود كعت : تريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص ٨٩ .

علماء المسلمين فى الدول الاسلامية على مر التاريخ ، وذلك لادراكهم بخطر مسئولية الفصل فى القضايا ، ورغبتهم الجارفة فى التفرغ للعلم تدريسا وتأليفا ، من أمثلة ذلك : محمود بن أبى بكر بغيغ ، من كبار علماء مدينة « تنبكت » وأشجعهم ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، واجه اسكيا اسحق الأول (٩٤٦هـ / ١٥٣٩م — ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م) فى أحد المواقف — أمام عامة الناس — بقوله : (ما عرفنا هنا أظلم منك ، أنت أبو كل ظالم وسببه ، ولا يغصب غاصب هنا مغصوبا الا لك ، وبأمرك ، وبقوتك ، ان كنت تقتل الظالم ، فأبدأ بنفسك وبأمر بها !)(٦٣) .

وكانت شجاعته — تلك — سببا فى اعجاب السلطان به ، فأصدر على الفور — قرارا بتعيينه قاضيا لمدينة (جنى) أحب أم كره ، (وعمموه وهو يصرخ ويبكى بكاء الصبى ، وقدموه جبرا ... فلما دخل بيته استقبلته زوجته .. وقالت : لم رضيت القضاء ؟ ، فقال : لم أرض بذلك وانما أجبرونى بها وكلفونى ، فقالت : لو أخترت الموت عليه لكان أحسن منه .. وأدبرت باكية ، ثم دعا على اسكى اسحق بقوله : اسحق نفى عن عينى الكرى وألزمنى السهر ، كدر الله عليه عيشه ، وأنزل عليه ما يشغله)(٦٤) .

وكان القاضى يظل فى وظيفته مدى الحياة ، وكلمته مسموعة ، وشفاعته مقبولة لدى الحكام ومن دونهم ، فالقاضى محمود بن عمر (ت ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م) قاضى قضاة مدينة « تنبكت » فى عهد اسكيا اسحق ، كان يمنع رسل السلطان وجنوده من دخول « تنبكت »

---

(٦٣) نفسه ص ٨٩ .

(٦٤) المصدر السابق ص ٩٠ .

خوفا من ظلمهم للرعية ، وحين زاره اسكيا محمد وعاتبه فى ذلك ، رد عليه ، قائلا : (هل نسيت أم تناسيت يوم جئتنى فى دارى ، وأخذت برجلى وثيابى ، فقلت : جئت أدخل فى حرمك ، وأستودعك نفسى ، أن تحول بينى وبين جهنم ، فانصرنى وأمسك بيدى حتى لا أقع فى جهنم ، وأنا وديعتك ، فهذا سبب طردى رسلك ورد أمرك ، فقال(٦٥) : نسيت ذلك والله ، ولكن ذكرته الآن ، صدقت والله ، جزيت خيرا وكفيت شرا ، أطال الله اقامتك بينى وبين النار وغضب الجبار .. وحتى الآن ، أنا وديعتك ، آخذ بذيلك ، فاثبت فى ذلك المكان ثبتك الله ، .. وودع الشيخ ، ورجع فرحا مسرورا داعيا للشيخ بطول البقاء)(٦٦) .

وكان لبيت القاضى احترامه وتقديره لدى السلاطين وعامة الناس لا يستطيع السلطان دخوله الا باذن القاضى نفسه ، فلقد حدث خلاف بين القاضى « العاقب ت ٩٩١هـ / ١٥٨٣م » وبين اسكيا داود (٩٥٥هـ / ١٥٤٨م — ٩٩١هـ / ١٥٨٣م) ، فأراد الأخير زيارة القاضى المذكور فى بيته ، ليعتذر اليه ويستسمحه ، فمنعه البوابون من الدخول (ووقف اسكى على بابه على رجليه وقوفا طويلا ، وما استأذن له فى الدخول ، الا بشفاعة بعض علماء البلد وأكابر شيوخه ، ثم أمر بفتح الباب له ، ودخل عليه متواضعا متذللا ، وكب على رأسه فقبله وجلس حذائه ، وهو يتخشن (أى القاضى) ، واسكى يتلين حتى أرضاه ورضى ، وتوافقا بعد اباية منه وامتناع)(٦٧) .

ولقد كان لهذا النظام القضائى الراسخ نتائجه الطيبة ، التى

---

(٦٥) أى اسكيا محمد .

(٦٦) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص ٦١ .

(٦٧) المصدر السابق ص ١٠٩ .

انعكست آثارها على شعب سنغى ، اذ انتشر العدل ، وقل الظلم وأمن الناس على حقوقهم ، لأن الجميع — أمام القضاة — متساوون •

الحيـــاة العلميـــة :

ارتبطت بلاد السودان الغربى — منذ انتشار الاسلام فيها فى القرن الخـــامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) — ببلاد المغرب العربى ، وتأثرت بالثقافـــة الاسلامية الوافدة اليها من المغرب تأثرا عظيما ، فانتشر فيها مذهب الامام مالك ، كما وصـــلت اليها التأثيرات الأندلسية عن طريق المغرب العربى — أيضـــا —(٦٨) •

وحين قامت دولة مالى فى تلك المناطق ، استطاع سلاطين هذه الدولة — بما أوتوا من ثراء واسع — أن يولوا وجوههم شطر دول المشرق الاسلامى ، خاصة مصر وبلاد الحجاز ، فكانت رحلاتهم الى زيارة بيت الله الحرام فى مكة ، مناسبات عظيمة للاطلاع على التقاليد الاسلامية ، والحياة العلمية فى مصر وبلاد الحجاز(٦٩) •

وكان قرب الجامع الأزهـــر الشريف من بلاد الحجـــاز ، وعلى الطريق المؤدى اليه عاملا له أثره ، اذ كانت جموع الحجيج القادمين من بلاد الســـودان الغـــربى تمر بالقاهرة — وهى فى طريقهـــا الى الحجاز ، وفى عودتها منه — وضمت قوافل الحج — عادة — عـــددا كبيرا من العلماء ، حرصوا — أثناء وجودهم فى القاهرة — على التردد على الأزهر ومشاهدة حلقات العلم فيه ، والتعرف على أفاضل علمائه ، وكان عدد منهم يتخلف عن القافلة ، ويمد فترة اقامته — فى القاهرة —

---

(٦٨) دكتور / حسن أحمد محمود : الاســـلام والثقـــافة العربية فى افريقيا ، مرجع سبق ذكره ص ٢٤٣ — ٢٤٥ •

(٦٩) محمود كعت : تاريخ الفتاش : •• مصدر سبق ذكره،ص٣٨،٣٩

رغبة منه فى تعميق صلاته بالأزهر وعلمائه(٧٠) ، ويبدو أن بعض المصريين — من العلماء وغيرهم — رحلوا الى بلاد السودان الغربى واستقروا بها ، بدليل ما رواه ابن بطوطة من أنه حين زار تلك البلاد سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م ، وجد الأزياء المصرية منتشرة فيها ، وحين ألم به المرض فى مدينة مالى ، لم يسعفه بالعلاج الا طبيب مصرى ، وشاهد — فى مدينة « تنبكت » — قبرا لأحد التجار من مدينة الاسكندرية(٧١) .

ومن جهة أخرى ، فان اقامة بعض طوائف من بلاد السودان الغربى فى مصر ، دفعت بعض التجار الى بناء مدرسة لهم ، لتدريس المذهب المالكى ، عرفت بمدرسة « ابن رشيق »(٧٢) ، وغدت هذه المدرسة المالكية مركزا لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور ، حتى ان الخيرين من أهل تلك البلاد اعتادوا أن يبعثوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات ، كما أنشىء لهم رواق خاص فى الجامع الأزهر عرف باسم « رواق الدكارنة »(٧٣) .

---

(٧٠) دكتور / عبد العزيز محمد الشناوى : الأزهر جامعا وجامعة ، جزءان ، الأنجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٨٣/١٩٨٤، جـ ١ ص ١٤٥، ١٤٦.

(٧١) ابن بطوطة : تحفة النظار .. مصدر سبق ذكره ص ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٥١ ، ٤٥٣ .

(٧٢) سميت المدرسة بهذا الاسم ، لأن علم الدين بن رشيق هو الذى أشرف على بنائها ، وأول من درس بها فى القرن السابع الهجرى (الثامن عشر الميلادى) انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، طبعة مصورة عن الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة ١٩٨٢ ، جـ ١٠ ص ٩٦ .

(٧٣) المرجع السابق جـ ٤ ص ٥٢ .

وحين قامت دولة سنغى الاسلامية فى أواخر القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) شهدت الحياة العلمية نهضة كبرى ، فلقد سار سلاطين هذه الدولة على خطى سلاطين دولة مالى ، بل فاقوهم فى هذا المضمار الحضارى ، حتى اعتبر القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) أزهى عصور الثقافة الاسلامية فى بلاد السودان الغربى(٧٤) ، وظهرت هذه السياسة الرشيدة واضحة جلية فى عهد اسكيا محمد بن أبى بكر ، واستمرت فى عهود خلفائه من بعده ، ويمكن ارجاع عوامل ازدهار الحياة العلمية فى تلك الآونة ، الى ما يأتى :

أولا : تبوأ العلماء مكانة رفيعة ابان عصر دولة سنغى ، فبفتواهم تتم ولاية السلطان ، وبفتواهم يصير معزولا ، واتخذهم السلاطين مستشارين لهم ، فلا يبرم أمر دون مشورتهم ، ولا يتخذ قرار دون موافقتهم ، ولا يشاهد السلطان الا بكوكبة من العلماء ، ووجدت عدة وظائف مرموقة اختص بها العلماء ، منها : وزير القلم ، والترجمان ، هذا الى جانب القضاء الذى اقتصر عليهم دون غيرهم .

ومن جهة أخرى ، فلقد بارك سلاطين سنغى النهضة العلمية والثقافة فى بلادهم ، بتشجيع العلماء والفقهاء واحترامهم ، واعفائهم من الضرائب ، واغداق الأموال الطائلة عليهم ، ومنحهم اقطاعات

---

(٧٤) دكتور / أبو بكر اسماعيل محمد ميقا : تاريخ الثقافة الاسلامية والتعليم فى السودان الغربى (من القرن الرابع الهجرى حتى مطلع القرن الثالث عشر) مجلة الدارة ، العدد الثانى ، الرياض سنة ١٤١٤هـ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

واسعة ، فتفرغوا لعلمهم ، وعلت مكانتهم وسما قدرهم ، وذاع صيتهم(٧٥) .

ثانيا : التوسع فى انشاء المدارس لتحفيظ القرآن الكريم ، ودراسة العلوم الدينية والعربية ، فلقد تنافس السلاطين والأمراء والعلماء والأعيان ومن اليهم فى انشاء المدارس تقربا الى الله تعالى ، وتنافسوا — أيضا — فى انشاء المساجد الكبرى ، التى كانت بمثابة كليات يتخرج فيها العلماء ، بعد الحصول على اجازتهم العلمية ، لتولى وظائف القضاء والتدريس والامامة والخطابة ، شأنهم فى ذلك شأن المتخرجين فى الجامع الأزهر الشريف بالقاهرة ، وفى القيروان ، وفى فاس ، وغيرها من الحواضر الاسلامية ، ودرست مدارس وجامعات سنغى المناهج العلمية التى كانت تدرس فى أقطار العالم الاسلامى فى تلك الآونة ، فنجد الفقيه يجمع — الى جانب دراسة الفقه — دراسة النحو والصرف ، والبلاغة والبيان ، والتفسير والحديث ، والتاريخ والسير ، الأمر الذى أدى الى انتشار اللغة العربية على نطاق واسع ، حتى غدت لغة التخاطب بين سكان سنغى ، الى جانب كونها لغة الادارة ، والمراسلات ، والمعاملات ، والمراسيم ، والدواوين(٧٦) ، وبذلك طبعت البلاد بطابع اسلامى عربى واضح .

ثالثا : الاحتكاك الثقافى بالعالم الاسلامى ، عن طريق الحج ،

---

(٧٥) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ، ص ٧٢ — ٧٤ ، ص ١١٥ ، ١٤٥ — مجرد أمثلة — .

(٧٦) دكتور / أبو بكر اسماعيل محمد ميقا : تاريخ الثقافة الاسلامية مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٤ .

والتجارة ، والرحلة فى طلب العلم ، وتبادل العلماء والمفكرين(٧٧) ، وحسبنا أن نذكر — تدليلا على ذلك — أن اسكيا محمدا اصطحب معه أثناء رحلته لزيارة بيت الله الحرام سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م — عددا من علماء سنغى ، والتقى — فى طريق عودته بمدينة القاهرة — بالشيخ جلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) وجلس اليه طويلا — مجلس التلميذ من الأستاذ ، وسأله عن أشياء ، وأجابه السيوطى عن كل ما سأل ، ومن جملة قول السيوطى لاسكيا محمد :

(.. أنت مريد منصور عادل ، كثير الفرج والعطاء والصدقة . تنام أول الليل ، ثم تصلى آخره ، ويصيبك عمى فى آخر عمرك ، ويعزلك واحد من أبنائك ، ويرميك فى بعض الجزائر ، ثم يخرجك ابن آخر ، ومصداق جميع ما قلت : علامة فى فخدك اليسرى ، كانت من برص ، فأبرأه الله بغير علم أحد ، فقال اسكى : صدقت يا سيدى وقرة عينى)(٧٨) .

وكان الشيخ جلال الدين السيوطى ذائع الصيت فى بلاد التكرور ، وانتشرت مؤلفاته فى تلك الأنحاء ، وأقبل الطلاب

---

(٧٧) دكتور / عبد الله عبد الرازق ابراهيم : الدعوة الاسلامية والتحديات المحلية فى غربى أفريقية ، مجلة الدارة ، العدد الرابع ، الرياض سنة ١٤١٣هـ ، ص ٢٣٣ .

(٧٨) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ، ص ١٣ ، ١٤ . وهذا كلام مخالف لما نعرفه من الشرع الحكيم أن الأمور الغيبية لا يعلمها الا الله تعالى حيث يقول : ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام .. الخ سورة لقمان .

والدارسون على دراستها(٧٩) ، كما راسله علماء سنغى يستفتونه فى العديد من المسائل الفقهية ، فقد أرسل اليه الشيخ شمس الدين محمد اللمتونى سنة ٨٩٨هـ / ١٤٨٤م رسالة تحتوى على مشكلات فقهية مختلفة ، أجاب عنها السيوطى فى رسالة سماها (فتح المطب المبرور، وبرد الكبد المحرور ، فى الجواب على الأسئلة الواردة من بلاد التكرور)(٨٠) ، ويرى أحد الأساتذة أن السيوطى زار هذه المناطق ، وأقام بها زمنا يعلم الناس(٨١) ، هذا الى جانب ارتباط علماء سنغى بعلاقات وطيدة مع أسرة البكرى فى مصر(٨٢) .

فكان للعوامل السابقة أثر كبير فى أن تموج الحياة العلمية والثقافية — فى سنغى — بالحيوية والحركة ، فلا نجد مدينة من المدن الا وفيها كتاتيب أو مدارس أولية ، تقوم بتحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم مبادىء اللغة العربية للأطفال ، لتأهيلهم للمراحل الدراسية العليا فى مدينة « تنبكت » ، أو « جنى » أو « كاغ » بالاضافة الى

---

(٧٩) دكتور / عصام الدين عبد الرءوف : مؤلفات السيوطى (من بحوث ندوة جلال الدين السيوطى) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهره سنة ١٩٧٨ ، ص ٤٣ .

(٨٠) دكتور / حسنين محمد ربيع : منهج السيوطى فى كتابه التاريخ (من بحوث ندوة جلال الدين السيوطى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، سنة ١٩٧٨م ، ص ٤٣ .

(٨١) دكتور / حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٢ . ولا أوافقه هذا الرأى لما نعرفه عن أيام سنين السيوطى الأخيرة . وفى هذا مبالغة اون فهم منها تقدير العلماء وحفاظ القرآن الكريم .

(٨٢) السعدى : تاريخ السودان .. مصدر سبق ذكره ص ٣٢ ، ٦١

رعايتهم ماديا وأدبيا ، فصاحب « تاريخ الفتاش » يروى أن بلدة « كنجو » فى اقليم « كياك » ، (لا يدخلها جندى ، ولا يسكنها أحد من الظلمة ، الا سلطان كياك ، يزور علماءها وقاضيها فى شهر رمضان من كل عام .. بصدقاته وهداياه ، يفرقها عليهم ، واذا كانت ليلة القدر ، يأمر بطبخ الطعام ، ثم يجعل المطبوخ فى .. مائدة .. ويجعلها فوق رأسه ، وينادى قراء القرآن وصبيان المكتب ، يأكلونها والمائدة على رأسه .. يحملها ، وهو قاعد ، وهم قائمون يأكلون تعظيما لهم)(٨٣) .

ومن جهة أخرى ، انتشرت المكتبات العامة والخاصة فى شتى أرجاء سنغى ، وراجت تجارة الكتب حتى فاقت — فى ربحها(٨٤) — كل تجارة وتنافس السلاطين والأمراء على شراء الكتب والمخطوطات ، ثم يأمرون باعادة نسخها وتوزيعها على العلماء وطلبة العلم ، فالقاضى محمود كعت — مؤلف « تاريخ الفتاش » — حين احتاج الى نسخة من « القاموس المحيط » للفيروز أبادى(٨٥) اشتراها له اسكيا داود بثمانين مثقالا من الذهب(٨٦) ، وكان داود من أشد الناس حبا للعلم

---

(٨٣) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدرسبق ذكره ص١٧٩، ١٨٠

(٨٤) دكتور / أبو اسماعيل محمد ميقا : تاريخ الثقافة الاسلامية .. مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤١ .

(٨٥) الفيروزابادى : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى الشيرازى ، امام اللغة والأدب ، توفى سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م : انظر : السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ستة أجزاء ، مكتبة الحياة ، بيروت (بدون تاريخ) ج ١ ص ٣٠٢ .

(٨٦) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص١٠٨، ١٠٩

والعلماء حافظا للقرآن الكريم ، قرأ العديد من أمهات الكتب العربية ، وله شيوخ يقومون على تعليمه ، ونساخ ينسخون الكتب ، ويهادى بها العلماء ، هذا الى جانب أنه كان يمتلك مكتبة خاصة تضم ألوانا من العلوم والآداب والفنون ، ومن شدة حبه للعلم ، وتكريمه للعلماء ، واذعانه لآرائهم ، واعترافه بقدرهم ، كان يردد — دائما — (لولا العلماء لكنا من الهالكين)(٨٧) ، ويكثر من مجالستهم تبركا بمشاهدتهم ، اذا علم بمرض واحد منهم ، داوم على زيارته ومؤانسته حتى يشفى من مرضه(٨٨) ، وكان كثير التصدق على طلبة العلم والفقراء والمساكين ، وأوقف عليهم حدائق واسعة أطلق عليها (جنان المساكين)(٨٩) .

واذا كان هذا شأن داود ، فان ابنه اسكيا اسحق الثانى (٩٩٦هـ/١٥٨٨م ٩٩٩هـ/١٥٩١م) كان هو الآخر (كريما ، سمحا ، جوادا .. غاية فى التصدق والعطاء ، محبا للعلماء ، مكرما لهم) .

فلا عجب اذا ، أن نقرر أن الحضارة الاسلامية شهدت فى دولة سنغى ابان القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ازدهارا عظيما ، وتلك طبيعة الاسلام ، اذا شرح الله به صدور قوم سادوا ، وصاروا فى طليعة الأمم ، علما ، وحضارة ، ورقيا ، وتقدما .

وسوف نقصر حديثنا على مدينة (تنبكت) ، ذات التاريخ العظيم فى الحياة الدينية والعلمية فى عصر دولة سنغى .

---

(٨٧) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٨٨) المصدر نفسه ص ١١٥ .

(٨٩) المصدر نفسه ص ١١٥ .

تنبكت :

حاضرة الثقافة الاسلامية فى غرب افريقية ، وكعبة العلم التى حج اليها العلماء والطلاب من كل حدب وصوب فى عصر دولة مالى وعصر دولة سنغى ، أنشأ الطوارق هذه المدينة فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، وقت انتشار الاسلام فى تلك المناطق ، ولذا لم يدن سكانها بغير الاسلام ، فكانت جديرة بقول السعدى : (ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها — قط — لغير الرحمن ، مأوى العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء والصالحين)(٩٠) وحقيقة بوصف صاحب « تاريخ الفتاش » لها بأنها « بلد الله » ، وأنها « فى غاية الحسن والجمال ، واقامة الدين ، واحياء السنة »(٩١) .

تميزت مدينة « تنبكت » بنشاط اقتصادى كبير ، فقد اشتهرت بتجارة التمر ، والملح ، والذهب ، والحنطة ، وتألقت كمركز مسيطر على التجارة التى كانت تمر بين مدينة « جنى » فى الجنوب ، وقبائل « ولاته » فى الشمال ، كما غدت قرية « كابارا » — المشهورة بالصيد النهرى والمجاورة لها — بمثابة ميناء نهرى لها ، لوقوعها بالقرب من طريق نهرى يتحكم فى جزء كبير من بلاد السودان الغربى ، الأمر الذى أعطى « تنبكت » ميزة كبرى على الاسواق المجاورة(٩٢) ،

---

(٩٠) السعدى : تاريخ السودان ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١ .

(٩١) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٩

(٩٢) دكتور / أحمد الحفناوى : تاريخ الثقافة العربية فى غرب افريقية ، مجلة الأزهر ، الجزء السابع ، السنة الثالثة والستون ، رجب سنة ١٤١١هـ / ١٩٩١م ص ٧٤٨ .

ووجدت بها مصـــانع ضخمة لصناعة الملابس ، يذكر مؤلف « تاريخ الفتاش » أن عددها يزيد على الثلاثين مصنعا ، فى كل مصنع عمال يزيدون على المائة عامل ، لهم معلم يسمونه « الشيخ أو الرئيس »(٩٣)، ونظرا لتحكم « تنبكت » فى الأنشطة الاقتصادية والتجارية ، انتقل اليها العلمـــاء ، حيث استقروا فترة طويلة يمارسـون التجـارة الى جـانب التعـليم .

كانت مدينة « تنبكت » ـــ بحق ـــ مركز الحياة الثقافية ، وقلب الحركـــة الفكرية النابض ، اجتمع فيها العلماء من كل جنس ولون : المغاربـــة ، والأندلسيون ، والمصريون ، والحجازيون ، ووفد اليهـــا الناس من كافـــة بقاع غربى افريقية : من السنغال ، والنيجر ، ومن امارات الحوصـــا (الهوسا) ، وبرنو ، وكانم ، كل هـــذه الطوائف كانت تحرص على حج هـــذه المدينـــة ، فتقيم بها زمنا ، ثم ترحل ، أو تقيم اقامة دائمـــة ، وقل أن تجـــد كتابا لم يؤلف فى « تنبكت » أو فقيها لم يتعلم فيها(٩٤) .

وحين نقلب صفحات « تاريخ الفتاش » لا نجد صـــفحة فيه ـــ تقريبا ـــ تخلو من ذكر « تنبكت » ، فكانت عاصـــمة دينيـــة وعلميـــة وحضارية فى عصر دولة سنغى ، ودأب السلاطين على زيارتها ـــ بين الحين والآخر ـــ حتى ينالوا بركة رؤية العلماء ، ويحظوا بدعائهم ، ويعملوا على توفير ما يحتاجونه من أموال تدعيما لنشاطهم العلمى(٩٥)،

---

(٩٣) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص ١٨٠ .

(٩٤) دكتور / حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٨ .

(٩٥) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ، ص ١١٠ .

فنعمت مدينة « تنبكت » بهدوء واستقرار ثابت فى عهد اسكيا محمد وخلفائه ــ من بعده ــ مما جعل عصر دولتهم أزهى فترات التاريخ والحضارة الاسلامية فى بلاد السودان الغربى على الاطلاق ٠

كانت الحياة فى هذه المدينة لها شأن ، حيث كانت سوقا رائجة ، فيها البضائع من مصر ، والمغرب ، وأوربا ، وكان أغلى ما يباع فيها الكتب ، وبها احياء خاصة يسكنها التجار الوافدون من جميع بلدان العالم الاسلامى ، وضمت العديد من المكتبات العامة التى يرتادها طلاب العلم ، الى جانب المكتبات الخاصة التى اقتناها العلماء والأثرياء ، وكانوا لا يبخلون على طلبة العلم بشىء منها(٩٦) وزاد عدد مدارس تحفيظ القرآن الكريم بها على مائتى مدرسة خاصة بالأطفال الذين يقبلون ــ فى شغف ــ على حفظ كتاب الله ، يروى القاضى محمود كعت عن مدرسة من تلك المدارس ، تولى شئونها شيخ يدعى على تكريا ، فيقول :

(بعد صلاة الظهر ، جعل صبيانه يأتونه بخمس ودعات(٩٧) وبعضهم بعشر ودعات ــ على عادتهم ــ حتى تحصل قدامه ألف وسبعمائة وخمس وعشرون ودعا ٠٠ وأسرحت نظرى الى ألواح الصبيان ، وعدتها مائة وثلاثة وعشرون لوحا ، وظننت أن تكون جملة

---

(٩٦) المصدر السابق ، ص ١٠٨ ٠

(٩٧) الودع : عملة صنعت فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ٠

القرآن محصلة فى تلكم الالواح !)(٩٨) .

ومن أشهر المساجد الجامعة ـ فى مدينة « تنبكت » ـ مسجد « سنكرى » الذى غدا جامعة اسلامية راقية ، تمثل احدى منارات التقدم الفكرى والثقافى فى بلاد السودان الغربى ، والذى كان التعليم فيه بمثابة التعليم العالى ، لأنه شمل المناهج الدراسية التى كانت تدرس فى جامعات العالم الاسلامى الشهيرة ـ آنذاك ـ والتى رسخت ـ فى ذات الوقت ـ الدعائم الأساسية للحضارة الاسلامية(٩٩) .

لقد تخرج فى هذه الجامعة ما يجل عن الحصر من أفاضل العلماء ، الذين حملوا مشعل النور يبددون به ظلمات الجهل والوثنية فى شتى أرجاء سنغى عن طريق اشتغالهم بوظائف التدريس فى المدارس المختلفة ، وتوليهم الامامة والخطابة فى المساجد العامرة باذاكرين الله ، وقيامهم باقرار العدل بين الرعايا من خلال اعتلائهم مناصب القضاء فى مدن سنغى ، ونظرا لتميز هؤلاء العلماء بغزارة العلم ، وبراعة التصنيف والتأليف ، ذاع صيتهم ، وتخطى آفاق سنغى الى بقاع العالم الاسلامى المعمور فى تلك الآونة .

---

(٩٨) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٩٩) المصدر السابق ص ٤٤ ، ٥٢ ، وانظر ايضا دكتور / احمد الحفناوى : تاريخ الثقافة العربية فى غرب افريقية .. مرجع سبق ذكره ص ٧٥٠ ، ٧٥١ .

وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال ــ لا الحصر ــ :

القاضى العاقب بن قاضى محمود بن عمر ، الذى انتشر ذكره فى بلاد المغرب العربى ، ومصر ، وبلاد الحجاز ، واشتهر بالعلم والفضل ، حتى كان سلاطين المغرب العربى يخاطبونه فى مراسلاتهم ويشكون اليه سلطان سنغى .

ولد القاضى العاقب سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧م فى بيت علم ، فأبوه محمود بن عمر ه ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م كان (عالم بلاد التكرور وصالحها، ومدرسها وفقيهها ، وامامها بلا مدافع ، تولى قضاء تنبكت سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م فى عهد اسكيا محمد ، فسدد فى الأمور ، وانتفع به خلق كثيرون)(١٠٠) .

فى هذه البيئة الطيبة نشأ القاضى العاقب ، وتخرج فى جامعه تنبكت ، وبرع فى فقه الامام مالك ــ رضى الله عنه ، وتولى وظيفة قاضى قضاة تنبكت ، فاشتهر بعدله وحزمه ، وجرأته فى الحق ، كما عرف ــ أيضا ــ بكثرة انفاقه فى وجوه الخير ، وبناء المساجد ومدارس العلم ، حتى نعته مؤلف « تاريخ الفتاش » بقوله : (كان أعظم قضاة تنبكت عدلا واجتهادا .. مسددا فى أحكامه ، ثبتا فيها ، صلبا فى الحق ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، محمود السيرة)(١٠١) .

بعد أن رجع من حجه صمم على تجديد بناء مساجد تنبكت ، من ماله الخاص ، تقربا الى الله تعالى ، فبنى المسجد الكبير ، وهدم مسجد

---

(١٠٠) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ، ص ٧٥، وانظر : السعدى : تاريخ السودان ، مصدر سبق ذكره ص ٣٨ ، ٣٩ .

(١٠١) محمود كعت : تاريخ الفتاش ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢١ .

« سنكرى » الشهير ، وأعاد بناءه على نظام المسجد الحرام فى مكة المكرمة ، وبنى مسجدا ثالثا فى سوق تنبكت ، (وأنفق فى بناء هذه المساجد الثلاثة ، ما لا يعرف نهايته الا الله تعالى ، فجازاه الله أحسن ما جازى به من أحسن عملا ، وحدثنى بعض من أثق بروايته أن الحاج الأمين(١٠٢) .. سأله — حين كان فى بناء الجامع الكبير : كم يكون نفقة البناء فى يوم عليك ؟ فقال : سبعة وستين مثقالا الا ثلثا !)(١٠٣)

وقد توفى القاضى العاقب سنة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م ، بعد أن ملأ الدنيا علما وعدلا وفضلا .

احتلال المغرب الأقصى لدولة سنغى الاسلامية :

فى الشمال من دولة سنغى الاسلامية ، وقعت سلطنة المغرب الأقصى ، التى كان يحكمها الأشراف السعديون(١٠٤) ، الذين خاضوا صراعا ضاريا ضد البرتغاليين فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، لاجلائهم عن سواحل المغرب ، ثم انشغلوا فى صراع على السلطة فيما بينهم ، حتى تولى العرش أبو العباس أحمد المنصور

---

(١٠٢) أحد علماء سنغى .

(١٠٣) المصدر السابق ص ١٢٢ .

(١٠٤) حكمت دولة الأشراف السعديين من سنة ٩١٦هـ / ١٥١١م ، الى سنة ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م ، وترفع الأسرة الحاكمة نسبها الى الحسن ابن على رضى الله عنهما — ويرجع بعض الباحثين لقب السعديين ، لانتسابهم الى السيدة حليمة السعدية ، مرضعة النبى — صلى الله عليه وسلم ، انظر دكتور / أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية .. مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ص ٩٢ — ٩٥ .

الذهبى سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م(١٠٥) ، والذى تطلعت آماله وطموحاته الى احتلال دولة سنغى ، طمعا فى الاستيلاء على ثرواتها الضخمة وتجارتها الرائجة ، بعد أن تدهورت اقتصاديات المغرب ، وشجعه على ذلك ، وقوع النزاع والخلاف — فى سنغى — بين بعض أفراد البيت الحاكم ، فشرع فى مطالبة سلطان سنغى بالتنازل عن مناطق الملح فى (تغازى) القريبة من الحدود المغربية ، لمواجهة الزحف البرتغالى الصليبى على بلاده(١٠٦) .

ثم أعد المنصور الذهبى جيشا ضخما سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩١م ، بلغ عدد جنوده أربعة آلاف جندى ، مزودا بأحدث أسلحة عصره من مدافع وبنادق ، وأمر على هذا الجيش (جودر باشا) — الأسبانى الأصل — وأصدر أوامره بالزحف على دولة سنغى للاستيلاء عليها(١٠٧)

وحين وصلت أخبار زحف الجيش المغربى الى اسكيا اسحق الثانى (٩٩٦هـ / ١٥٨٨م — ٩٩٩هـ / ١٥٩١م) ، عقد مجلس المشورة (الشورى) المكون من الأمراء والعلماء جلسة طارئة لبحث الموقف ، فأشار عليه بعضهم بارسال فرقة فدائية تسبق جيش المغرب الى آبار الصحراء ، فتغورها حتى يهلك الجيش عطشا ، وأشار عليه فريق آخر بترحيل سكان العاصمة (كاغ) بأمتعتهم الى الجانب الغربى لنهر

---

(١٠٥) عز المنصور الذهبى سنة ١٠١٢هـ / ١٦٠٢م ، انظر : دكتور/ احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ، المرجع السابق ص ٩٤ .

(١٠٦) محمود كعت : تاريخ الفتاش ، مصدر سبق ذكره ص ١٤٦

(١٠٧) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

النيجر ليكونوا في مأمن من خطر المغاربة(١٠٨) ، لكن غالبية أعضاء (المشور) رفضوا الاقتراحين السابقين ، وأصروا على مقابلة الجيش المغربي في (سنكي) القريبة من (تندبى) المجاورة للعاصمة (كاغ)، وبناء على رأى الأغلبية ، أعد اسحق الثانى جيشا ضخما ، وضع فى مقدمته ألف بقرة يتم دفعها فى وجه جيش المغرب ــ عند لقائه ــ حتى تثير الفوضى والاضطراب بين صفوفه(١٠٩) .

وبعد رحلة شاقة ، وصل الجيش المغربى الى (سنكى) ليواجه جيش سنغى فى جمادى الاولى سنة ٩٩٩هـ فبراير سنة ١٥٩١م ، حيث دارت رحى معركة ضروس بين الجيشين المسلمين ، لكنها غير متكافئة التسليح ، اذ بينما سلاح جيش سنغى الحراب والنشاب والحرشان (السهام) ، اذا بمدافع وبنادق جيش المغرب تحصدهم حصدا ، الأمر الذى هيج أبقار جيش سنغى على أفراده ، وزاد فى نسبة خسائره ، وسمى هذا اليوم بيوم (سنكى) ، وهرب اسحق الثانى ــ بمن نجا معه من الفرسان ــ من الميدان ، وعبر نهر النيجر ، وعسكر فى مكان يسمى (برهة) وأمر سكان عاصمته بعبور النهر،بمايستطيعون حمله من الأمتعة ، فهاموا على وجوههم فى ذعر وفوضى شديدين ، مما تسبب فى اغراق أعداد لا تحصى بما يحملون من أمتعة ، (وترى امرأة ، وبيدها طست ملىء بالذهب وغيره ، تنادى صاحب سفينه ، باكية : احملنى ولك هذا ، فلا تجد من يلتفت اليها)(١١٠) .

---

(١٠٨) تزعم المنادين بهذا الرأى القاضى محمود كعت ، وحين رفض رأيه هاجر بأسرته قبيل الحرب الى مدينة تنبكت ، انظر : تاريخ الفتاش- مصدر سبق ذكره ص ١٥٠ .

(١٠٩) المصدر السابق ص ١٤٧ .

(١١٠) المصدر السابق ، ص ١٥١ ، وانظر أيضا ص ١٤٩ ــ ١٥٠ .

وبذلك انفتح الطريق أمام الجيش المغربى الى العاصمة (كاغ)، فاستولى عليها دون مقاومة تذكر ، (وعملوا فيها السبيل خمسة عشر يوما)(١١١) ، وجردوها من كل ما تحويه من كنوز الذهب ، ولم يحل المغاربة عنها الا بعد أن صارت أثرا بعد عين •

وكانت وجهة الجيش المغربى — بعد كاغ — الى مدينة «تنبكت» فاستولى عليها بقيادة محمود باشا بن زرقون ، الذى أرسله سلطان المغرب قائدا عاما على حمله سنغى ، وما أن دخل ابن زرقون « تنبكت» حتى أمر بعمل السبيل فيها (سبعة أيام متواصلة)(١١٢) •

فلما علم اسحق الثانى بما حدث خرج بجيش خائر العزيمة ، والتقى بابن زرقون فى مكان يسمى (بنب) ، ودارت بين الجيش معركة قصيرة انتهت بهزيمة اسحق وفراره من الميدان مرة ثانية ، وقد نجم عن الهزيمة الثانية أن حدث نزاع بين اسكيا اسحق الثانى وأخيه محمد كاغ ، تمخض عن عزل الأول من الحكم وتولية الثانى ، فهرب اسحق بأهله وولده الى سلطنة (كرم) الوثنية فى الجنوب ، والتى سبق له أن غزاها ، وقتل الكثير من أهلها ، فاستقبله سلطانها بالترحاب وأضافه فى قصر فخم ، ولما انتصف الليل باغته برجاله ، وقتلوه ومن معه ، وهدموا القصر عليهم(١١٣) •

---

(١١١) يفسر صاحب تاريخ الفتاش مصطلح عمل السبيل بقوله (اذا غضب السلطان على أهل بلد ، وخرجوا عن طاعته ، أو خالفوه ، ينزل عليهم بجيشه ، فيدخل بلادهم ، فيقتل كل من التقى به ، وكل من رآه) ، تاريخ الفتاش •• ص ١٦٩ ، ١٧٠ •

(١١٢) المصدر السابق ، ص ١٦٩ •

(١١٣) المصدر السابق ص ١٥٣ ، ١٥٤ •

وفى الجانب الآخر ، توجه الباشا محمود بن زرفون بجيشه صوب (كاغ) لمواجهة السلطان الجديد ، وحين علم بذلك اسكيا محمد كاغ أرسل اليه وفدا يطلب منه عقد صلح ينهى الحرب بين الطرفين ، فوافق ابن زرفون وكتب اليه أن يحضر بنفسه فى مكان يسمى (تنش) لعقد الصلح ، فاصطحب اسكيا سنغى ثلاثة وستين من كبار رجال دولته وخاصة قواده ، وذهب الى معسكر ابن زرفون ، الذى تظاهر باكرام وفادتهم ، وأعد لهم (الموائد ، واللحوم ، والمشويات ، وأكلوا منهم(١١٤) من يناولهم الماء بعد الفراغ من الأكل ، ومنهم من يحمل الماء لغسل الأيدى ، والمناديل يمسحون أيديهم فيها)(١١٥) ، ثم غدر بهم ليلا — وكبلهم بالأغلال ، وساقهم الى (كاغ) ، وبعد شهر من حبسهم أمر بقتلهم جميعا !(١١٦) .

وبعد مقتل اسكيا محمد كاغ ، قاد أخوه نوح بن داود المقاومة ضد الجيش المغربى ، فتوجه اليه ابن زرفون ، فى مكان يسمى (وام) حيث وجد غابات كثيفة يمر طريقه بها ، كمن له فيها اسكيا نوح بفرق المقاومة ، فلما أراد اجتيازها نصحه بعض القادة بضرب المدافع فوق الأشجار ، ففعل ففرت الكمائن من مخابئها ، فصطدم المغاربة برصاصهم(١١٧) .

ودارت بين الجيش المغربى وفرق المقاومة — بعد القضاء على

---

(١١٤) أى اتباع محمود باشا بن زرفون .

(١١٥) محمود كعت : تاريخ الفتاش .. مصدر سبق ذكره ص ١٦٢ .

(١١٦) المصدر السابق ص ١٦٥ — ١٦٧ .

(١١٧) المصدر السابق ص ١٦٨ .

اسكيا نوح ـ معارك متقطعة ، استمرت طوال عامين ، كما توالت النجدات العسكرية المغربية ، حتى بلغت ست حملات ، وبعد ذلك رجع محمود باشا بن زرقون الى تنبكت ، واستقر بها ، ابتداء من سنة ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م .

نتائج الغزو المغربى لدولة سنغى :

كانت هزيمة جيش سنغى أمام مدافع وبنادق الجيش المغربى مؤذنة بتفكك عرى الروابط بين دولة سنغى ، والقبائل التى كانت تخضع للحكومة المركزية فى العاصمة (كاغ) ، اذ انتهزت قبائل الطوارق ، والفولانيين ، والحوصا (الهوسا) ، وغيرها ، الفرصة ، فأغاروا على المزارعين فى المناطق الزراعية نهبوا ممتلكاتهم ، فحل البؤس والفقر محل الأمن والرخاء .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فمن يقرأ « تاريخ الفتاش » يجد الباشا محمود بن زرقون يدبر خطة محكمة لنهب مدينة « تنبكت » ، لأن ما قدمه سكانها من ذهب لم يشبع نهمه ، فأعلن جنوده أنهم سيقومون بتفتيش دورهم بحثا عن السلاح ماعدا دار القاضى عمر(١١٨) ، فهرع سكان تنبكت الى منزل القاضى يودعون فيه ما يملكون من مال ومتاع ، وقام المغاربة بتفتيش منازل الأهالى ، ونهبوا ما وجدوه فيها ، ثم جمعوهم فى مسجد « سنكرى » وطلبوا منهم أن يقسموا يمين الولاء والطاعة للمنصور الذهبى سلطان المغرب، ثم أطلقوا سراحهم ماعدا الفقهاء وأقاربهم وأتباعهم ، والمتصلين

---

(١١٨) المصدر نفسه ص ١٧٣ ، ولم نقف على ترجمة وافية للقاضى « عمر » المذكور فى المتن .

بالقاضي عمر ، اذ أمروا بحبسهم ، ونهب أموالهم ، واعتدوا على نسائهم وذبحوا ـ منهم ـ أربعة عشر رجلا ، وجمع بن زرقون تلالا من الذهب ، أرسل منها نحو مائة مثقال الى سلطان المغرب ، واستبقى الباقي لنفسه ، ثم نقل العلماء في الاغلال ، وساقهم أسرى الى مراكش سنة ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م(١١٩) .

ويصور أحد حفدة القاضي محمود كعت ، ما أصاب « بلد الله » تنبكت ـ حينئذ ـ تصويرا يثير الأسى والحزن ، فيقول :

(ولما أجلاهم(١٢٠) القوم وارتحلوا ، صارت تنبكت جسما بلا روح ، وانعكست أمورها ، وتغيرت حالها ، تبدلت عوائدها ، ورجع أسفلها اعلاها ، وأعلاها أسفلها ، وساد أراذلها على عظمائها ، وباعوا الدين بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعطلت الأحكام الشرعية ، وأميتت السنة ، وأحييت البدع ، ولا بقي فيها من يتمسك بالسنة ، ولا من يسير على منهج التقوى !!)(١٢١) .

وهكذا نجح المنصور الذهبي ، سلطان المغرب ، في القضاء على دولة من أكبر الدول الاسلامية وأغناها ، وأكثرها ثقافة ، في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، فتمزقت وحدتها ، وتفرقت قبائلها ، وكسدت تجارتها وتدهور اقتصادها ، وعم الفقر والجوع شعوبها وقبائلها ، وخبت جذوة العلم والثقافة فيها ، فأغلقت معاهد العلم ومدارسه ، بعد أن قبض محمود بن زرقون على علمائها ونفاهم

---

(١١٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٠ ـ ١٧٧ .

(١٢٠) أي علماء تنبكت .

(١٢١) محمود كعت : تاريخ الفتاش . مصدر سبق ذكره ص ١٧٥ .

الى مراكش ، فشاع الجهل ، وظهرت البدع والخرافات ، وتفشت العادات الوثنية القديمة فى أوساط المسلمين •

وقد وجدت القبائل الوثنية المجاورة الفرصة مواتية ، فواصلت حملاتها وغاراتها على بلاد المسلمين ، فى الوقت الذى بدأ فيه الغزو البرتغالى الصليبى يطرق أبواب سنغى من الجنوب بعد أن نجح فى احتلال ساحل بنين ومصب نهر النيجر

وبدأ صراع بين الاسلام والمسيحية ، استمر الى يومنا هذا(١٢٢) •

ولم يفد المغرب — من ذلك — شيئا ، سوى تضحيات باهظة من أرواح بنيه ، ثم انقطعت صلته بالباشوات الذين أرسلهم ، اذ استقلوا بسنغى عن المغرب ، الذى شغل بنفسه ، على أثر الحملات البرتغالية التى احتلت أجزاء من أراضيه ، وصراع الطامعين فى عرشه من جانب آخر •

رضى الله عن القاضى محمود كعت ، ورضى عن حفدته ، جزاء ما حفظوا للمسلمين من تراث ؟

دكتور/أبو وردة عبد الوهاب عطية السعدنى
مدرس التاريخ والحضارة
بكلية اللغة العربية

---

(١٢٢) انظر فى هذا الموضوع : دكتور / عبد الله عبد الرازق ابراهيم: المسلمون والاستعمار الأوربى الافريقى ، الكويت سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص ٧٩ — ١١٨ •

« سلاطين سنغى فى القرن العاشر الهجرى »

١ ــ اسكيا الحاج محمد بن أبى بكر ٨٩٨/٩٣٥هـ ــ ١٤٩٣/١٥٢٩م

٢ ــ اسكيا موسى بن الحاج محمد ٩٣٥/٩٣٧هـ ــ ١٥٢٩/١٥٣١م

٣ ــ اسكيا محمد بنكين (ابن أخ الحاج محمد) ٩٣٧/٩٤٣هـ ــ ١٥٣١/١٥٣٧ م .

٤ ــ اسكيا اسماعيل بن حاج محمد الكبير ٩٤٣/٩٤٦هـ ــ ١٥٣٧/١٥٣٩م .

٥ ــ اسكيا اسحق الأول بن الحاج محمد ٩٤٦/٩٥٥هـ ــ ١٥٣٩/١٥٤٨م .

٦ ــ اسكيا داود بن الحاج محمد ٩٥٥/٩٩١هـ ــ ١٥٤٨/١٥٨٣م

٧ ــ اسكيا الحاج بن داود ٩٩١/٩٩٥هـ ــ ١٥٨٣/١٥٨٦م

٨ ــ اسكيا محمد بان بن داود ٩٩٥/٩٩٦هـ ــ ١٥٨٦/١٥٨٨م

٩ ــ اسكيا اسحق الثانى بن داود ٩٩٦/٩٩٩هـ ــ ١٥٨٨/١٥٩١م

١٠ ــ اسكيا محمد كاغ بن داود ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م

١١ ــ اسكيا نوح بن داود ٩٩٩هـ/١٥٩١م

اهم المصادر والمراجع

اولا : المصادر :

١ ـ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطنجي ت ٧٧٩هـ) : تحفة النظار في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار ، كتاب التحرير ، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

٢ ـ التونسي (محمد بن عمر) تشحيذ الأذهان في ذكر بلاد المغرب والسودان ، تحقيق دكتور / خليل عساكر وآخرين ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٥م .

٣ ـ السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢ هـ) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ستة أجزاء ، مكتبة الحياة ، بيروت (بدون تاريخ) .

٤ ـ السعدي (عبد الرحمن .. ت ١٠٦٦هـ) تاريخ السودان ، نشر هوداس ، مطبعة بردين ، بمدينة انجي الفرنسية ، ١٨٩٨م .

٥ ـ ابن العماد (عبد الحي بن العماد الحنبلي ، ت ١٠٨٩هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ثمانية أجزاء ، بيروت (بدون تاريخ) .

٦ ـ القلقشندي (شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد ، ت ٨٢١هـ) : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، أربعة عشر جزءا ، القاهرة ، ١٩١٣ ـ ١٩١٧م .

٧ ـ كاتب مراكشي مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، نشر وتعليق دكتور / سعد زغلول عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٨٦م .

٨ ـ كعت (القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت ، ت ١٠٠١هـ) تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس ، نشر هوداس ولافوس ، مطبعة بردين ، بمدينة انجي الفرنسية ١٩١٣م

٩ ـ ياقوت (أبو عبد الله ياقوت الحموى الرومى البغدادى ، ت ٧٢٦هـ) معجم البلدان ، خمسة أجزاء ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

ثانيـا : المراجع الحديثة :

١٠ ـ أحمد السعيد سليمان (دكتور) : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، جزءان ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

١١ ـ حسن أحمد محمود (دكتور) : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا الطبعة الثانية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

١٢ ـ خليل السامرائى (دكتور) : الأوضاع السياسية للعالم الاسلامى من خلال رحلة ابن بطوطة ، بغداد ١٩٨٦م .

١٣ ـ خير الدين الزركلى : الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) ، الطبعة السابعة ، بيروت ١٩٨٦م .

١٤ ـ عبد الرحمن زكى (دكتور) : المسلمون فى العالم اليوم (أفريقيا الاسلامية) ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

١٥ ـ عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الأزهر جامعا وجامعه ، جزءان ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٤ / ١٩٨٣م .

١٦ ـ عبد الله عبد الرازق ابراهيم (دكتور) : المسلمون والاستعمار الأوربى الافريقى ، الكويت ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

١٧ ـ عبد المنعم ماجد (دكتور) : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، جزءان ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٢م .

١٨ ـ عبله بدوى (دكتور) : مع حركة الاسلام فى افريقيا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠م .

١٩ ـ على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، عشرون جزءا ، طبعة مصورة عن الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢م .

ثالثا : الدوريات :

٢٠ ـ أبو بكر اسماعيل محمد ميقا (دكتور) : تاريخ الثقافة الاسلامية والتعليم فى السودان الغربى (من القرن الرابع الهجرى حتى مطلع القرن الثالث عشر) ، مجلة الدارة ، العدد الثانى ، الرياض ١٤١٤هـ

٢١ ـ أحمد الحفناوى (دكتور) : تاريخ الثقافة العربية فى غرب افريقية مجلة الأزهر ، الجزء السابع ، السنة الثالثة والستون ، القاهرة، رجب ١٤١١هـ / ١٩٩١م ٠

٢٢ ـ حسنين محمد ربيع (دكتور) : منهج السيوطى فى كتابة التاريخ، بحوث ندوة جلال الدين السيوطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٧٨م ٠

٢٣ ـ عبد الرحمن زكى (دكتور) : المراجع العربية فى التاريخ الاسلامى لغربى افريقية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، عدد ٢٧ ، القاهرة ، ١٩٥٥م ٠

٢٤ ـ حسام الدين عبد الرءوف (دكتور) : مؤلفات السيوطى ، من بحوث ندوة جلال الدين السيوطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٨م ٠

٢٥ ـ عبد الله عبد الرازق ابراهيم (دكتور) : الدعوة الاسلامية والتحديات المحلية فى غرب افريقية ، مجلة الدارة ، العدد الرابع، الرياض ١٤١٣هـ ٠